مداخلة الأستاذ أحمد طهراوي

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية
بوزريعة

الأهمية العلمية للجغرافيا وقيمتها التربوية

قال طاغور: (إن أسمى أشكال التربية هو الذي لا يقتصر على إعطاء المعرفة، بل يجعل الحياة متوافقة مع الوجود كله). ففي العصر الحاضر أصبح الإنسان يجد نفسه مهما قل تعليمه على صلة وثيقة بمحيطه ويحتاج بصورة متزايدة إلى معلومات أكثر حول هذا المحيط .ومن بين المواد الدراسية التي تلبي حاجيات الإنسان في هذا المجال، نجد أن الجغرافيا تنفرد بإعطاء صورة وتفسير لعالم يتفق وضرورات الحياة ذات الآفاق المتجددة التي تكاد تكون بغير حدود. ونظرا لأنه من غير الممكن أن يدرس الإنسان كل شيء عن الظواهر الجغرافية بالتفصيل، فإنه لامفر من تقسيم دراسة هذه الظواهر المختلفة إلى فروع يقع الاختيار عليها حسب الحاجة، مقارنة بالمستوى الدراسي من جهة ومراعاة سن الدارسين من جهة ثانية وحسب الهدف من الدراسة كما هو الحال بالنسبة للتعليم الجامعي، أي اختيار التخصصات لخدمة التنمية.

وإذا كانت معرفة العديد المتزايد من المظاهر الجغرافية وأسماء البلدان والأماكن ومختلف الأقاليم ومنتجاتها أمرا من الصعب استيعابه، فإنه لابد من معرفة المبادئ الأساسية لتحديد الظواهر الجغرافية تحديدا دقيقا .

وعليه فإن دارس الجغرافية طالبا كان أو تلميذا مطالب ببذل قدر من الجهد المتناسب مع مستواه العقلي والدراسي وخبرته في الحياة .كما أن الغاية من اختيار المواضيع لتصميم البرامج الجغرافية يجب أن تتمثل في التركيز على المشاكل الناجمة عن العلاقة بين الإنسان وبيئته أي تفاعل الإنسان مع محيطه ومحاولة إيجاد الحلول اللازمة لهذه المشاكل التي تختلف من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم ، كتوفير حاجيات الغذاء والمياه الصالحة للشرب وحل مشكل السكن والنقل وتوفير خدمات العلاج ومناصب الشغل للسكان في سن العمل إلى غير ذلك، ويتم هذا في إطار مخططات تنموية شاملة تساهم فيها الجغرافيا بشكل كبير.

من هذا المنطلق يمكن معرفة مصادر الثروة في الإقليم ودرجة استخدامها لتحسين ظروف حياة المحتاجين ورفع مستوى السكان.

ويفهم من هذا بكل وضوح أن مهمات كبرى تنتظر أجيال الغد الذين هم طلاب اليوم الذين ينقصهم أحيانا وضوح الهدف نتيجة انهم لم يعرفوا الكثير عن المستقبل وتوقعاته. لهذا يجب علينا عند وضع برامج مادة الجغرافيا في كل المستويات أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الجانب الهام الذي يتمثل في محاولة إيجاد الحلول للمشاكل المطروحة أمام الإنسان حاضرا ومستقبلا، وذلك بدراسة العلاقة بين الإنسان ومحيطه دراسة جدية لاحتواء كل المشاكل المتنوعة الناجمة عن هذه العلاقة.

إن مدرس مادة الجغرافيا يجب أن يعرض لطلابه تحدي المشاكل المطروحة في محيطهم مع مراعاة مقدرتهم ومستوى فهمهم ،ولو أن حل هذه المشاكل يحتاج إلى من تكون مهمتهم الحقيقية هي البحث العلمي. فاستثمار موارد إقليم معين، سطحية كانت أو باطنية، يحتاج إلى علماء وباحثين في تخصصات مختلفة كالجيولوجيا والزراعة والاقتصاد وعلم الاجتماع وأكثر من ذلك إلى علماء جغرافيين يستطيعون أن يسهموا إسهاما كبيرا في تنمية وتطوير منطقة ما وذلك لأن هدف الجغرافيا الأساسي هو دراسة العلاقة بين الإنسان وبيئته التي يعيش فيها كما سبقت الإشارة إلى ذلك ،أي دراسة التأثير المتبادل بين عنصري الإنسان والطبيعة، فالإنسان يتأثر بالبيئة ويؤثر فيها أيضا، وكذلك دراسة العلاقة المتبادلة بين المجموعات البشرية.

هكذا تقدم الجغرافيا كعلم تركيبي من أولوياته الضرورية تحليل الظواهر المختلفة من حيث التفاعل والتبادل فيما بينها وإمكانية القيام بعملية الاستصلاح أو التهيئة التي تكون لصالح الإنسان سواء بالمناطق المأهولة فعلا أو المناطق التي يمكن أن يستغلها الإنسان مستقبلا بعد القيام بعملية الاستصلاح الإقليمي.

إن المطلوب من تدريس مادة الجغرافيا هو أن يعطى الأطفال حسب أعمارهم تقديرا متزنا لمشاكل العالم الحقيقية وكيفية إيجاد احسن الحلول لها قصد الوصول إلى حياة أفضل على مستوى البلد الواحد ولكل البشر. وبهذه الكيفية تقوم الجغرافيا بغرس فكرة التعاون والتكاتف في نفوس الطلاب وهي فكرة يجب أن يتبناها جميع الناس أي فكرة التفاهم بين جميع أبناء البشر.

إن علاج الجغرافيا للمشاكل المطروحة بهذا الأسلوب يجعلها محببة لنفوس الطلاب لأنها تساعدهم على فهم أفضل للعالم الذي يعيشون فيه والدور الذي يجب عليهم القيام به ،وماهي المهمات التي تنتظرهم، كما تساعدهم على معرفة الإمكانات الضخمة التي تتوفر عليها الأرض ويمكن استغلالها شريطة تركيز الجهود البشرية على المسائل الحيوية الأساسية.

فإذا سرنا في هذا الاتجاه سيكون هناك فهم جديد لمادة الجغرافيا سيجعلها تتبوأ مركزا ممتازا في التربية الإنسانية يليق بها في العصر الحاضر ويدفع بالطلاب الىفهم أكثر لمهمة علماء الزراعة والاقتصاد والجيولوجيا والعمران والجغرافيا، فهؤلاء جميعا يشتغلون في ميادين يحتاج إليها العالم الجديد الذي أخذت ملامحه الجديدة تتشكل وتتضح أكثر.

وحتى تصبح مادة الجغرافيا مثيرة للاهتمام ومليئة بالحيوية، يجب أن تعنى كتب الجغرافيا عموما والمدرسية منها بالخصوص، بالتركيز على إبراز المشاكل الحيوية وخاصة المشاكل الإقليمية المتعلقة بالظواهر الطبيعية والبشرية وبالإنتاج، فإذا تم ذلك فإنه بالتأكيد ستصبح الجغرافيا أكثر حيوية وجاذبية وأقل جفافا مما هي عليه عندما تكون محصورة في ذكر قوائم جافة لحقائق كثيرا ما تكون لامعنى لها عند التلاميذ .وفي هذا المجال يمكن أن نورد مثالين :

المثال الأول عن مصادر الطاقة في الجزائر

فعند تقديم درس في الجغرافيا الاقتصادية عن مصادر الطاقة في الجزائر لايجب التركيز أو الاكتفاء بذكر الكميات فقط التي تنتجها

الجزائر من مادة المحروقات لأن التلاميذ بحاجة إلى معرفة الخطوات التي تخطوها الجزائر في مجالات التنمية اعتمادا على استغلال ثرواتها الطبيعية ، وما هو مستوى استغلال هذه الثروة ؟. فإذا أخذنا على سبيل المثال مصادر الطاقة يجب أن نعرف التلاميذ على:

أ ـ تطور الإنتاج، والأساليب المستعملة في الاستغلال، والاكتشافات الحالية والتوقعات المستقبلية....الخ.

ب ـ ماهي التأثيرات أو الانعكاسات الإيجابية وربما حتى السلبية لاكتشاف واستغلال هذه الثروة في مجال التنمية بصفة عامة، وفي مجال دخل الخزينة العمومية وتأثير ذلك على التشغيل والصحة والتعليم والنقل والخدمات المنزلية بتوفير الوقود بطريقة سهلة وبأسعار مقبولة وعلاقة ذلك كله بالمحافظة على الغطاء النباتي وعلى الثروة الغابية في الجزائر إلى غير ذلك.

ج ـ مساهمة استغلال هذه الثروة الإيجابية في الميزان التجاري تصديرا واستيرادا، وإذا كانت هذه الثروة هي الطاغية على الصادرات الجزائرية فما هو البديل مستقبلا عند نفاد هذه الثروة ؟.

د ـ مامدى مساهمة هذه الثروة في التنمية القطاعية أي بقطاع كل من الزراعة والصناعة وغيره.

المثال الثاني: عن الدراسات الإقليمية في الجغرافيا التطبيقية.

مهما كانت درجة الإهتمام بالإقليم فإننا لا نبالغ في قيمة الدراسات الإقليمية وخاصة بيئة الطلاب التي تعتبر وسيلة هامة لإعطائهم فكرة أفضل عن جمال الجغرافيا وجاذبيتها وفائدتها وذلك مع مراعاة سن

التلاميذ ، مع تكليفهم بأبحاث عن مناطق مجاورة. فإذا تمكن الطلاب من فهم خصائص منطقتهم أو بيئتهم، ومن معرفة إيجابياتها وسلبياتها، فإنهم ولا شك سيشاركون في تطوير بلدهم ويؤدون دورهم بشكل أفضل نتيجة لمعرفتهم بالبيئة الطبيعية التي يعيشون فيها ، كما تسمح لهم هذه المعارف بالمشاركة في حل المشاكل المطروحة في أوساط أو بيئات بعيدة عن بيئتهم الأصلية أي أن اكتسابهم للمعرفة من خلال دراستهم لبيئتهم الأصلية يكون حافزا لهم للاطلاع وللنشاط أكثر في أقاليم جغرافية أخرى. علما بأنه لايمكن للدارس أو الباحث أن يفهم المشاكل المطروحة فهما صحيحا إلا من كانت له معلومات أساسية كافية حول مظاهر الأقاليم الجغرافية كالتضاريس والمناخ والمياه والنباتات ومصادر الثروة الطبيعية إضافة إلى معرفة مميزات السكان ومختلف الأنشطة التي يمارسونها. فبالمعرفة المتناسقة الشاملة لجميع المعلومات يمكن اكتشاف الحلول المناسبة للمشاكل المطروحة آنيا ومستقبلا. وفي هذا الإطار يمكن أن نذكر بأهمية الدراسات الميدانية في الجغرافيا التي تسمح للطالب بالاطلاع على كل مشاكل الوسط الجغرافي عن كثب عن طريق المعاينة في عين المكان.

القيمة أو الدور التربوي للجغرافيا

إن عملية القيام بعرض أو وصف الظواهر الجغرافية وتحليلها تثير القدرات العقلية عند الطلاب، لهذه الأسباب يجب أن يكون تعلم الجغرافيا دليلا وموجها لهذه القدرات قدر المستطاع، إذ أن القدرات العقلية التي تنميها وتثيرها دروس الجغرافيا يمكن أن تتمثل في الآتي:

أولا: تنمية القدرة على الملاحظة

يمكن اعتبار دروس الجغرافيا في جانبها الوصفي علم ملاحظة،وهي من وجهة النظر هذه تكون أقرب إلى العلوم الطبيعية والتجريبية، لذا كان لزاما على معلم الجغرافيا أن يدرب التلاميذ على دقة الملاحظة لكل عناصر البيئة الطبيعية والبشرية التي يعيشون فيها كالتضاريس والمناخ والعمران البشري ونشاط السكان الخ .... وكذلك الأمر بالنسبة للمناطق البعيدة التي يتعذر على الطالب مشاهدتها مباشرة. وتكون الملاحظة أساسية وضرورية عن طريق الخرائط والصور الجوية والفضائية والرسوم والمجسمات كالكرة الأرضية أو عن طريق أجهزة العرض المختلفة مثل الـ (DATA- SHOP).

إن التدريس المبني على الملاحظة يستلزم التدريب على الملاحظة دون الاقتصار على التركيز على المظاهر الغريبة كالشلالات أو القمم العالية مثلا بل يجب على مدرس الجغرافيا أن يؤكد على المناظر والمظاهر الجغرافية العادية التي يشاهدها الطالب في حياته اليومية، كما لايجب الاقتصار في تعليم مادة الجغرافيا على الكتاب بل يجب لفت انتباه الطالب إلى الملامح الطبيعية والبشرية وما ينجم عنها.

بالإضافة إلى ذلك يركز المدرس على مظاهر التكيف مع البيئة وعلى الأساليب المستخدمة في حل المشاكل الناجمة عن هذا التكيف ، لأنه عندما ندرب طلابنا على الملاحظة والمشاهدة نطور لديهم ملكة النقد ونعلمهم كيف ينظرون إلى الأمور نظرة فاحصة مميزة ويفكرون بأنفسهم تفكيرا يستند إلى الحقائق والمعلومات التي يعرفونها ، وكيف يتفاعلون مع هذه المظاهر.

إن هذا الاتجاه يربي لدى الطلبة الروح التي تبعث على البحث العلمي وتثير فيهم رغبة المساهمة في البحث العلمي مستقبلا.

ثانيا: تنمية الذاكرة والمخيلة لدى الطلاب

في القديم كانت الجغرافيا تقتصر على الوصف وعلى **إنماء الذاكرة اللفظية** لدى التلميذ باستظهار أسماء لبلدان وأماكن لاحصر لها، أما في الوقت الحاضر، ولو كان تعليم مادة الجغرافيا بشكل صحيح يتطلب معرفة الحد الأدنى الضروري من معرفة أسماء الأماكن والبلدان والملامح الجغرافية لأن استظهارها يساعد الدارسين على تعيين المواقع والمعالم المرشدة على الخرائط والمصرات الجغرافية، فإنه لابد من التركيز والعمل على **تنمية الذاكرة البصرية** عند الدارسين صغارا كانوا أو كبارا عن طريق تعليمهم الاصطلاحات الجغرافية في مواقعها بدقة على الخرائط، فبهذه الطريقة سينتج عن هذه العملية العقلية الاستظهار عن طريق المشاهدة والملاحظة. إضافة إلى ذلك فإن درس الجغرافيا سيقدم للطالب الكثير في مجال تطوير المخيلة وإغنائها ابتداء من الصور والمشاهد والأوصاف والتفسيرات التي يقدمها الأستاذ فيكون عند الطالب صورة عقلية حقيقية عن العالم بعيدا عن كل مبالغة أو أوهام، وبذلك يكون لدرس الجغرافيا أثر صحي مفيد يسهل عمل الذاكرة عند الأطفال بتطوير ذاكرتهم البصرية وإثارة مخيلتهم وكبح جماح الخيال عندهم.

ثالثا: تنمية القدرة على تمييز الأشياء وتعليل الظواهر

تنمو القدرة على التمييز عند الطالب بزيادة التركيز على ملاحظة الحقائق وتسجيلها، ذلك أن الغاية من تدريس الجغرافيا هي تعليم الطالب كيف يميز خصائص وملامح ظاهرة جغرافية ما أو مجموعة من الحقائق ذات الصلة ببعضها البعض . ويمكن تحقيق ذلك عن طريق:

1ـ تدريب الطلبة على التحليل والتعليل والمقارنة والموازنة حتى نثير فيهم الإحساس بالعلاقة أو الصلة بين الظواهر وندفعهم إلى التساؤل والبحث عن أسباب العلاقة (لماذا ؟.).

2ـ محاولة التعرف والاستدلال على الترابط بين الأشياء وما هي الأسباب ؟.

3ـ تعليم الطالب كيف يأخذ بعين الاعتبار جميع العناصر الطبيعية والبشرية، وكيف يتعود على الملاحظة والتفكير الجغرافي ؟.

رابعا: غرس الروح الجغرافية في ذهنية الطلاب

إن مادة الجغرافية تزود الطلاب بفكرة عقلية عن الحيز المادي بكل مافيه من مظاهر محسوسة ومعقدة، هذه الفكرة العقلية المؤسسة من سلسلة كاملة من المكونات والأجزاء، بعضها يمكن التعرف عليه بسهولة ويسر والبعض الآخر يتطلب عملا جادا ودقيقا. وهكذا يكتسب الطالب بصيرة أو تجربة تمكنه من النظر إلى الأشياء نظرة شاملة متكاملة مبنية على فهم العلاقات التي يربط الظواهر بعضها ببعض .

وخلاصة لما سبق ذكره يمكن أن نقول أن الهدف من تدريس الجغرافيا هو تطور القدرات العقلية عند الطلاب، كما أن تدريسها يجب أن يوجه إلى تكوين فكرة حب الاستطلاع الجغرافي ويؤدي في الأخير إلى أن يغرس فيهم روحا جغرافية متناسقة مع التربية العامة للتلميذ، مما يساعد الأجيال، على رؤية مشاكل الحاضر وإيجاد الحلول المناسبة لها، وتمكنهم من التصورات المستقبلية ووضع الاستراتيجية المناسبة لها.

المراجع

1 ـ أصول الجغرافيا البشرية، د . فؤاد محمد الصقار ود. رشيد الفيل ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت 1974 .

2ـ أبحاث في مشاكل البيئة، د. عبد المقصود زين الدين، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1986.

3ـ التخطيط الإقليمي، د . فؤاد محمد الصقار، دار المعارف بالإسكندرية 1970.

4ـ المدخل إلى علم الجغرافيا، د . إبراهيم أحمد رزقانة ود. عبد المجيد فايد. دار النهضة العربية ـ القاهرة 1968 .

5ـ مرجع اليونسكو في تعليم الجغرافيا، ترجمة زهير الكرمي،منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة ـ باريس.

6- L'univers rurale et la planification . P. U. F . Paris 1968 .

7- Comprendre une économie rurale .Guide pratique de recherche. Institut panafricain pour le développement. Edition l'harmattan. Paris 1981.